

ملخص الماركسيّة

(مع قراءة المذكرة: من ص 73-112)

المؤسس: كارل ماركس.

ولد ماركس عام 1818م في ألمانيا، وينتمي بوالديه لسلسلة طويلة من حاخامات اليهود. ولأسباب اجتماعية تحول والد ماركس إلى الديانة النصرانية البروتستانتية. درس في جامعتي بون وبرلين، وحصل على الدكتوراه في عام 1841م، وكانت أطروحته عن فلسفة كل من ديمقريطس وأبيقور. بعد ذلك سافر ماركس إلى باريس حيث انغمس في دراسة الشيوعية الفرنسية والاقتصاد السياسي. نُفي ماركس من باريس إلى بروكسل حيث انضم إلى الرابطة الشيوعية، وكتب البيان الشيوعي عشية اندلاع الثورة الفرنسية الثالثة سنة 1848م، وبسبب دوره الفعّال في التحضير لهذه الثورة في أوروبا الغربية تم اعتقاله، ثم أطلق سراحه في ألمانيا. وفي النهاية، وجد ملجأ في لندن حيث قضى بقية حياته في البحث والتنقيب.

توفي ماركس سنة 1883م، ولم يحظ بالذيوع والشهرة في حياته، فلم يهتم به وبدوره وعمله إلا عدد محدود جدًا من خارج دائرة أتباعه وأنصاره. لكن بعد موته بفترة ذاع صيته واشتهر أمره.

الشخصية الثانية المهمة: فريدريك إنجلز.

أثناء وجود ماركس في باريس قابل رفيق دربه وشريكه في الماركسية "فريدريك إنجلز"، وكونا صداقة دامت طيلة حياتهما. ولقد أسهم إنجلز إسهامًا فاعلاً في صنع أفكار ماركس وتوجيهها وتطويرها وإكسابها شعبية، كما أنه أعانه ماديًا فأزاح عنه عبء البؤس.

حقيقة الفلسفة الماركسية: ولدت هذه الفلسفة في التربة الأوروبية ومن رحم الحضارة الغربية، من أجل معالجة مشاكل الإنسان الغربي في تلك الفترة. ولم تكن إبداعاً خاصاً انقذ في عقل ماركس وحده، لكنها تطوير وتنسيق لأفكار غربية سابقة؛ قام ماركس بإحشدها وتلفيقها نتيجة ظروف عقلية واقتصادية واجتماعية محلية سيطرت على الغرب. فلسفة ماركس عبارة عن خليط من فكر الفيلسوف اليوناني أفلاطون، وتوماس مور، وفيلسوف المثالية هيغل، والملحد فيورباخ، والعالم الإنجليزي تشارلز داروين.. وغيرهم. وبالإضافة لكل هؤلاء؛ النظرة اليهودية التقليدية للمال والاقتصاد، وكراهية الدين العام في أوروبا وهو المسيحية.

مصادر فكر ماركس: أقام ماركس فلسفته الماركسية على ثلاثة مصادر مباشرة، وهي:

أولاً: الفلسفة الكلاسيكية الألمانية: أي فلسفة هيغل في (الجدل) الديالكتيك.

ثانياً: الاقتصاد الكلاسيكي الإنجليزي: أي الأوضاع الاقتصادية السائدة في إنجلترا الرأسمالية.

ثالثاً: الاشتراكية الفرنسية المرتبطة بالتعاليم الثورية الفرنسية.

مفهوم المادية عند ماركس: يُمكن تلخيص فكره المادي بقولنا إن المادة هي الأصل وهي أزلية وهي سابقة على العقل، وفكرنا هو مجرد انعكاس للمادة فقط. وأنَّ العالم المادي الذي تدركه حواسنا والذي ننتمي إليه هو الواقع الوحيد، أما الإدراك والفكر فليسا سوى نتائج عضو مادي جسدي هو الدماغ. ومن ثم لا يؤمن ماركس وأتباعه إلا بالمادة المحسوسة فقط. ويقر الماركسيون

بأن كل ما يوجد فهو مادة، وأنَّ غير المادي لا وجود له. ثم وصفوا المادة بصفات الخالق وأنها هي التي لها القدرة على الخلق، بل هي التي تخلق الروح، تعالى الله عما يقولون

الفرق بين هيغل وماركس: هيغل مثالي، وماركس مادي، فـهيغل يرى أنَّ حركة الفكر التي يُطلق عليها اسم الفكرة هي "الإله، الخالق، الصانع"، فالأشياء وتطورها لم تكن إلا صوراً تعكس هذه الفكرة التي كانت موجودة قبل وجود العالم. أما ماركس فهو على العكس يرى أنَّ حركة الفكر ليست إلا انعكاساً لحركة المادة منقولة إلى دماغ الإنسان ومتحولة فيه. فالمادة ليست شيئاً من نتاج العقل أو الفكرة، بل إنَّ العقل والفكرة نفسها ليست سوى نتاج المادة.

المادية الجدلية (الديالكتيك): من الأفكار التي أخذها ماركس من هيغل فكرة الجدلية (الديالكتيك)، القائل بأنَّ التطور يأتي عن طريق التناقض. لكنَّ الفرق بين هيغل وماركس أنَّ هيغل يذهب إلى أنَّ الفكرة هي خالقة العالم الحقيقي، وإلى أنَّ العالم الحقيقي ليس إلا الصورة الخارجية الطبيعية للفكرة. فجاء ماركس فقام بعكس الأمر، أي أنَّ الفكرة هي انعكاس للعالم المادي.

والمادية الديالكتيكية -بإيجاز- هي عبارة عن وجهة نظرٍ في العالم تقوم على اعتبار الكون وحدة لا تتجزأ، وأنَّ مصدره المادة المتحركة المتطورة إلى أعلى، وهي في خلال تطورها تمر بمستويات من التعقيد بحيث يؤدي التراكم الكمي إلى تغير كيمي. وتقوم والمادية الجدلية الديالكتيكية على قوانين هي التي تحكم عملية التطور والتغير. وهذه القوانين هي:

1- قانون تحول التغيرات الكميَّة إلى تغيرات كيميَّة: مثال ذلك؛ تغير الماء بزيادة الحرارة إلى بخار. فالتغيرات في العالم ليست إلا تغيرات كميَّة، والتغيرات الكميَّة ليست في حقيقتها إلى تغيرات كميَّة.

2- **قانون التطور:** وهو يعني أن كل مظاهر في الحياة والنظم والأفكار في حالة تطور دائمة، فلا شيء يبقى على حالة أبدًا.

3- **قانون الارتباط:** ويعني أنه لا يوجد شيء منفصل عن سواه في الحياة، فكل الأشياء مترابطة ومتأثرة ببعضها البعض، ولا يمكن عزل الشيء عن محيطه.

4- **قانون نفي النفي (التضاد):** ويعني أن كل شيء يحمل في نفس الوقت بذرة نقيضه، وأن عمليات التطور تحدث عن طريق أن كل شيء يلد نقيضه، فالشيء هو شيء وهو عكس هذا الشيء في آن واحد، أي هو شيء معين بالنظر إليه في حالته الراهنة وهو نقيض ذلك بما سيؤول إليه مستقبلاً.

مثال شارح للمادية الجدلية (الديالكتيك): يرى الماركسيون أن الجدلية تنطبق على الواقع الاجتماعي وعلى التاريخ، وأن أهم محرك لها هو الاقتصاد. فقد مر بتاريخ البشرية "النظام القطاعي" حيث يوجد الملاك وهم النبلاء والأمرء وفي مقابلهم العبيد والأرقاء الذين لا يملكون شيئاً، وإنما يعملون مقابل السكن والأكل والحياة ضمن إقطاع سيدهم. هذا "النظام القطاعي" - حسب وجهة نظر الماركسيين - كان يحصل فيه تحولات وصراع وفق قانون التطور، وكان يحمل بذور نقيضه، ونقيضه هو "النظام الرأسمالي". فسقط "النظام القطاعي" وحل محله "النظام الرأسمالي". و"النظام الرأسمالي" لم يتخلص من التناقضات بين الطبقات، بل حمل معه تناقضات جديدة. حيث إنه مكون من: ملاك وسائل الإنتاج (الطبقة البرجوازية) والعمال (البروليتاريا). وقد تنبأ ماركس بأن "النظام الرأسمالي" يحمل نقيضه وأنه سوف يتطور ويسقط ويتحول إلى النظام الأمثل، وهو "النظام الشيوعي".

الدين في الماركسيّة: لأنّ الفكر الماركسي لا يؤمن إلا بالمادة فقط؛ فقد أنكر الوحي والإيمان الديني بل أنكر وجود الله والأديان، وأنه لا آخرة ولا عقاب ولا ثواب. يقول ماركس: "لا إله إلا

المادة، المادة كل شيء، والحياة مادة". ويفسر ماركس وأتباعه الدين على أنه إفراز العامل الاقتصادي والطبقي، وليس مصدره من الله سبحانه وتعالى. فيعتقد ماركس ومن معه بأن الدين من مخترعات الطبقات المستغلة في المجتمعات لأجل إخضاع العبيد تحت سلطتهم، ولذلك أطلقوا عبارتهم الشهيرة: "الدين أفيون الشعوب"، وكانوا يعنون الديانة المسيحية. وقد أعلن الحزب الشيوعي الروسي في أوائل بياناته على ما يلي: "لا يستطيع حزبنا أن يكون محايدًا للدين، لأن الدين ينافي الشيوعية والشيوعية تنافي الدين".

الخلفية التاريخية والدينية والنفسية لماركس: وُلد كارل ماركس من أبوين يهوديين في مقاطعة الراين بألمانيا، وعاش في أسرة فقيرة مُعدمة تعاني مثل غيرها من سخرة الإقطاعيين والرأسماليين. كما عانت الأسرة من الاضطهاد الواقع على اليهود والازدراء بهم وتحقيرهم من قبل الشعب الألماني، وذلك بسبب الصراع بين اليهود والجنس الألماني. ولذلك اعتنقت أسرته المسيحية بينما كان ماركس في السادسة من عمره. لم يكن هذا محبةً في المسيحية، إنما كان هروبًا من الاضطهاد الواقع على اليهود، وعاش ماركس في ظروف صعبة يعاني من شظف العيش، وظل هكذا حتى أنه في ديسمبر 1852م كتب إلى صديقه كلوس يقول له: "أنني لست أفضل حالاً من سجين في بيته، ذلك لأنني لا أمتلك البنطلون الذي يستر ساقي، ولا الحذاء الذي يكسو قدمي. وأسرتي على شفا الإفلاس والفاقة".

وكان ماركس في ظل إلحاده يعيش صراعاً لم يذق معه طعم السعادة، وهذا ما نراه في قصيدته (نافخ المزمار) حيث يقول عن نفسه: "أن أبحر الجحيم تتصاعد وتلف رأسي حتى أُجن ويقسى قلبي". وفي قصيدة أخرى له يقول فيها: "لقد إنتهيت.. خربت.. ضعفت.. وموعدي إلى الانتهاء، ومسكني قد تماوى إلى حطام سريع"¹.

¹ مرجع سابق.

